

القصص

هو اجس بقلم حبيب الزحلاوي

بقية ما نشر في العدد الماضي

أكثر ليالي الصيف في مصر مقتطعة من فراديس النعيم
لمشاق اللبو والاستمتاع بالله !! كم ليلة قضيناها على شواطئ النيل
نستمتع بانسياب أمواجه الهادئة ، نشاهد مئاوي الأشباح تحت
ظلال النخيل ، نراقب أنوار المدينة ونجوم السماء تتناقص وتنطفئ ،
وتتلاشى على بساط الفجر وإشعاع الشمس

يا لله ! كم ليلة سمعنا فيها أغاني أم كلثوم وصوتها العذب
الحنون ! وكم أصغينا إلى نشيج محمد عبد الوهاب وأنغامه
المسترخية المتلينة ، وكم لسنا فيها تفاعل الاغناء والهاوت ، لقد
شهدنا على السارح تمثيل القردة التقليدي واسترعى انتباهنا ممثل
هنزلي بارع ، إحساسه في وجهه ، وعقله في نظرات عينيه ، وبراعة
فنه في إيماة وسكوته ، هو ذا نجيب الريحاني المطبوع على الفن
كم ليلة جئنا فيها حلقات الأدب ، ومجالس العلماء : (وبكوكبة)

الظرفاء وصلات التأديبات ، لقد كانت الرغبات هي كل شيء في
عرف صديقتي أنية تدفعها إلى معرفة كل شيء ، وكانت تقول :
« متى انقطعت الرغبات انقطع جبل الحياة معها ، وتجزم بأذن من
يتمتع قتل رغبات نفسه كان كمن يحاول الانتحار » كانت تعرف
الرغبات الجوالة في صدور الساسة « بأنها تقدير لما يحتاج إليه
النفس الانسانية الكبيرة » وتقول : « لا خير في جهود تبذل
إذا كان رجل السياسة يمجز عن إدراك رغبات مواطنيه
وحاجاتهم » وقالت عن المصريين : « إنهم كشمب ، يعرف جيداً
كيف يفرح ويحقد ، ولكنه لا يعرف أبداً كيف يفضب وينتقم »
لقد قالت لي صديقتي عن مجالس النساء والرجال قولاً ظريفاً فيه
مداعبة ومفاكحة ، والذمات وسخرية قالت : « إنه قد يمسرع عليها
إيجاد رجل واحد خليق بأن يسمى رجلاً بين مائة ممن لقيتهم من

الأدباء والعلماء والكتاب والسياسيين ، وإن المرأة العربية ليست
إلا أنثى » ، وكانت تضحك من الشبان المستكرشين والسبابا
المرهلات وتقول : « إن الرياضة تعلم الشباب الاعتداد بالذات »
شيطان صديقتي شيطان ذكر ، نبت في الشرق وتمرد في
أمريكا فصير صاحبته كصير العنب المستقطر بالبيانسون فأثدته
في قتله بالساء ، وهكذا متى عادت صديقتي إلى أمريكا سينذوق
الأمريكان خمرة معارفها ويستوعبون عمق وعيها وإدراكها وواسع
اطلاعها ، وقد مزجت ثقافتها الأمريكية بروح شرقي خاصته
الالهام والفيض

لقد عرفت نفسية صاحبتي تصني إلى كل نامة ، تستوعب
الكلمة والنرض ، تلحج البادرة الخاطفة ، تدرك مرأى النكتة ،
تقيد شوارد الفكرة وهمسات الفؤاد وسبجات الأحلام ، تسمع
ولا تتكلم ككتاب السوريين ، ولكنها متكلمة بطيب لها الحديث
تحلل فيه ما سمعت وتنفذ ما رأته ، على ضوء كأس من الوسكي
« كناديان » وسيجارة أمريكانية لا تنطفئ من ماركة « لسكي
ستريك »

علقت الوسكي وأدمنت التدخين ، فكانت تصدني عن الأول
لو حاولت شرب كأس قبل الطعام ، ولا تسمح به إلا بعد منتصف
الليل ، لأنه يماون الجسد على الاستغراق في النوم ، وتستكثرني من
التدخين ، لأنه يجلي البصيرة على رقصات الدخان وتلاعب تموجاته
شهران من شهور الصيف كانت لياليهما لنا ريادة استكشفتنا
بها أشياء كثيرة ، منها أغاني الرمال وأنغامها في الصحراء متى
داعبها النسيم أو عصف الريح ، جثوم أبي الهول عند أقدام الأهرام ،
هدير النيل في السلال وعظمته في القناطر الخيرية ، في غابات
النخيل المتكاثفة في كيشان الرمل ، وقد رأينا أشياء كثيرة في
النهار من معالم مصر كقبور الفراعنة ومخلفاتهم الباقية على
الدهر ، والجوامع والأديرة والمدافن وسواها مما لم يحفزني حافز
من قبل إلى مشاهدته

شهران كانا لي رياضة نفسية مجيبة كنت أتمرن في خلالها

أدق الماني وأبرع التصورات ، وأشمر بسجرتها يفتشاني فتشرق
نفسى لأنه كان كنفات بييدة عميقة لصوت حالم طروب حملها
الأثير من جوف وادي الظلام !! إلا أنه حدث ما لم أكن
أتوقمه ، حدث أن جاءني كتاب منها تقول فيه أن أكف عن
مراسلتها كما أنها ستقطع عنها ربما تماج من مرض ألم بها في إحدى
المصححات وتدعوني الى الصلاة لأجلها ، أو أبكيها بدمعة واحدة
إذا استنزف الداء حيوتها !!

عام طويل أجوف كأنه دهر من العدم حتى بي من كل
جانب كنت فيه كالشلول خولط في عقله ، لاهو من الأحياء فينفع
ولا هو يميت فيدفن . أما الآن فحمدأ لله ، فقد كتبت لى
صديقتى تقول إنها استعادت عانيها وبرئت من علها فتخلصت
أنا من التآرجح بين العدم والوجود ، وشفيت من تقلبات
النفس وانفعلاتها المكسية . . .

وانتصب واقفاً وقال : لقد دعوتكم الليلة يا رفاق صباي
وعشراء كهولتى لأفضى اليكم بما كان بي من هواجس ، وأعترف
لكم اعتراف الثقيل بالفرح ، فهيا نشرب كأساً من الشمبانيا تبرد
اليد المتقدة المسكة بقلي منذ عام ، وقد أفلت من مقابضها اليوم
لم يتقدم واحد للشراب بل قال قائل : هل لمثلك وقد جاوزت
الخمسين من عمرك أن يستترقك الحب ويريدك في مهاويه ؟ وقال
آخر : ليس ما كان بك هو الحب ، انما هو أنانية اشملت نارها
امرأة مكبوتة حساسة عاشت على الحنين الى الماضى في بيثة غربية
عنها . وقال الثالث : ان ما كان بك يا عزيزى هو حرمان أخرس
حلت الفرحة المفاجئة عقلة لسانه فصرخ صرخة الوداع !

وقال الرابع : لقد أنطقتك الخمر بما كان يجب السكوت
عليه ، وتبخرت اعترافاتك هذه نشوة سوف لاتاقاها بمد الآن .
وعاد الأول فقال : لقد كان الخيال البعيد يشمرك بالذكرى
المفقودة فكنت تتمدد إثبات وجودها بكأس كنت تشربها في
وقت معين ، وبسجارة كانت تصور لك مرأى الماضى الضائع ،
ومخيلات تلك الليالى الهاربة من أجواء أحلام الشراء ، أما
الليلة فقد بددت كل شىء ، بددت كرز وجدانك ، لأن رجل
الحياة هو الذى يحب ويتعذب ويموت فلا يشكى ولا يبكى ، وقال
آخر وهو يلوح يديه ويلوى عنقه وشفته : ما هو الحب ؟ أليس
هو . . . أليس هو ؟؟؟

لا . لا يا أصدقائى ، ليس الأمر كما تتوهمون ، ليس الحب

على الاستنباط من لوحة ذكريات الطفولة ، صوراً بزينة أعرضها
على مجهر خيالى وقد استفاق على المعرفة ، والبحث عن المعلوم
والمجهول . يا لله من اصطدام الطفولة البريئة بالرجولة المحنكة ، من
قوة العقل تكبح جاح طفرة النفس ، من صموية سيادة اللكات
الانسانية المكتسبة على نزوات الطبيعة الوحشية ، من مهمات
ملائكة الضمير على وسوسة الشيطان الرجيم !!

وقفت قبالة عربة القطار المقل لصديقتى أنيسة عبر حدود
مصر وقفة سهوم وقفور ، بل وقفة الكلف الولوج المكتوى
الفؤاد ، أخاف الفراق وأفرق منه لأنى سأصبح مضطرب الخيال ،
فريسة الوحشة ، يقيم الروح . ولما هم القطار متناقلاً في حركته ،
كان الألم المكبوت يوشك على الانفجار ، ولكنه تحول دموعاً
أنهمرت سخينة على يد صديقتى وقد قبلتها لأول وهلة

رفعت ذراعى ولوحت بها في الفضاء ، غير أن الصور اختلطت
على وغاب القطار

من لى بمن يعبر عما كان يتجاوب في صدرها من حنان
وحب ؟ من لى بمن يعبر عن نظراتها هل كان يفتشها طيف
حزين ، أو هى فآرة ساهمة ؟ من لى بأفأك يضحك منى فأصدق
تقولها إنها استلمت للأسى والمرارة كما استلمت أنا ، وأن
أحلام سعادتها قد انتمشت من جديد كما انتمشت أحلام سعادتى
أمل ورجاء ؟

لا لم يعد بي حاجة الى متقول يضحك منى إرضاء
لضعفى الطارىء المستحب ، لم تمد لى بالاستهواء الذاتى فأنى
قدرت ، بمد انقضاء أيام من الألم المضى ، أن البرزخ الفاصل
بيننا متمذر العبور ، ولكن شيئاً جديداً أعاد إلى رجاتى ، أحياء
فى أملى ، لقد أخذت كتب صديقتى تصلى تباعاً كل أسبوع ،
فى كل شهر ، فيها التوضيح والتبسيط لكل خلجات عواطف
المرأة التى تعرف كيف نبر عنها تبييراً صحيحاً فى حالة الانتماس
فيها أو فى حالة القدرة على وصفها بالكتابة ، أما الفصول القيمة
التي كانت تنشرها فى المجلة الأمريكية ففيها من التفصيل الدقيق
لذاتية الأديب الفنان الذى يتخذ من المشاهدات الواقعية والذاتية
ومن الخلجات العاطفية أداة للخلق والابتداع

سارت خطاباتها على مر السنين مصدر وحى لى فياض
بخصائص الحياة وعناصر الرغبة فيها ، كنت أستلمهم سطورها